القصة وحاضر الإنسان

بقلم خيري الضامن

حس الحاضر هو الميزة التي ينفرد بها الانسان ، لانه يختلف عن الموجودات الاخرى بامتلائه وعياً فعالاً لحاضره ... وليس معنى هذا انعدام الحاضر لدى تلك الموجودات ، بل معناه انعدام الوعي الفعال لذلك الحاضر عندها . ان حس الحاضر هو الذي يخلق القيمة الانسانية ، ولكن هذا الحس يبعث القلق والاشمئزاز في نفس الانسان في أحايين كثيرة ، ومع ذلك فان هذا الاشمئزاز وذلك القلق لا يخلقان قيمة سالبة كل السلبية ، اذ ان رد الفعل الناتج عنهما عند الانسان هو ما يشكل جانباً من قيمة ايجابية لها كثير من الاهمية .

ان القيمة الفعالة التي يخلقها وعي الحاضر وادراكه تتضح في عمل ذلك الوعي على تأكيد وجود الذاتية الانسانية، ذاتية النوع ، وجوداً مجسماً ذا امتدادات نحو كل الجهات ... ان ذلك ما يلح الانسان في طلبه إلحاحاً كلياً حتى اذا وجده بقي في شوق الى الاستزادة منه ، لكي تحقق لك تلك الاستزادة من الوعي اثباتاً صارماً لوجوده الذاتي .

ان وعي الانسان الحاضر يمكن ان يتهيأ في الحياة العادية والواقعية ، لكن الانسان في كثير من الاحايين لا يقتنع بذلك النوع من الوعي فهو يحاول — عن طريق الفنان — وبكل جد ان يخلق وعياً جديداً للحاضر ويحاول ان يسبغ على ذلك الوعي كل مقومات القوة والفعالية .

ويمكن خلق وعي للحاضر الانساني من خلال الفنون جميعها، ولكن ذلك الوعي يختلف قوة وضعفاً باختلاف تلك الفنون، اما اكثر الفنون قابلية على خلق الوعي الاقوى فهو فن القصة، لانه الفن الوحيد الذي يجسم الشخصية الانسانية تجسيماً امتدادياً على نطاق واسع ... ان اكثر الفنون ومن بينها الشعر ، تهتم اهتماماً تجزيئياً بالشخصية الانسانية ، اما الفن الوحيد الذي يهتم بتلك الشخصية اهتماماً كلياً فهو فن القصة .

ان الوعي العادي الناتج عن وجود الحياة العادية هو وعي متوفر لان حياة الانسان العادية مستمرة كاستمرار وجوده الطبيعي ، ولكن الانسان - والفنان خاصة - أبعد ما يكون عن القناعة ، فهو يبحث باستمرارية ملحة عن وعي جديد اكثر امتلاء من الوعي العادي ، تدفعه الى ذلك البحث نزعة تحقيق الوجود وتأكيده عن طريق الوعي الفعال، وقد لا يحصل الانسان بالبحث المستمر على وعي قوي فيضطر الى خلق ذلك الوعي خلقاً ... وقبل خلق وعي حاضر الانسان ينبغي خلق الانسان نفسه ، وهل يستطيع الانسان — من غير الفنانين — خلق الانسان ؟ وهل يستطيع الفنان — من غير القصاصين — خلق الانسان بأكمله ؟ ان مثل ذلك الفنان لا يستطيع الا تحقيق جزء من الانسان ، اما القصاص فهو الذي يستطيع خلق انسان جديد كامل له حاضر ممكن او فعلي ، ومن ثم لنا نحن — فنانين او غير فنانين — وعي لحاضر ذلك الانسان .

ان الانسان — الشخصية — الذي يخلقه القصاص هو انعكاس تام للانسان القصاص نفسه وللانسان الآخر ، وفي الحالين يكون القصاص مندفعاً — خلال عملية الخلق وبعدها — بسبب الرغبة في خلق وعي الحاضر الانساني ومن ثم تأكيد الوجود الانساني .

قد يُرى ان القصاص — عندما يخلق شخصية انسانية — لا يخلق وعياً يتناول حاضره هو ، وانما يكون ذلك الوعي متناولاً حاضر الشخصية التي يخلقها فقط. ان القصاص لا يخلق وعياً الا ويتناول حاضره هو ، انه لا يريد ان يخلق وعياً يتناول حاضر الآخرين، فهو لا يريد ان يؤكد وجود الآخرين قدر ما يريد ان يؤكد وجوده هو بالذات . فاذا كانت الشخصية التي يخلقها القصاص انعكاساً تاماً عن الآخرين، فان ذلك القصاص لا يريد خلق وعي يتناول حاضر اولئك الآخرين على اعتبار فرديتهم، وانما على اعتبارهم مثلاً للنوع الانساني الكبير ، وعلى اعتبار القصاص ذاته داخلاً ضمن هذا النوع الانساني الكبير ، فالوعي الذي يخلقه ، اذن، وعي يتناول حاضر القصاص نفسه ، على وجه او على آخر .

ولنر بصورة تطبيقية صحة ما نقول. ان كل النتاج القصصي

في العالم ، على مر الازمان ، ومع ضخامة ذلك النتاج ، يمكن اعتباره بشكل او بآخر نتيجة لنزعـــة خلق وعي الحاضر الانساني ، حتى تلك القصص التي هي انعكاس معقد للانسان عن طريق الشخصية الحيوانية او شبه الحيوانية ، صادرة عن تلك النزعة ذاتها . ان اقاصيص « ايسوب » و« كليلة ودمنة » و « امثال لافونتين » وكثيراً من اقاصيص «هانس اندرسن» مثال على ذلك . اما قصة « الف ليلة وليلة » وما هي شبيهة به على وجه من الوجوه ، « كالالياذة » و « الاوديسة » وما هو شبيه بها من قصص الخيال المتـأخرة ، فهي لا تخرج عن ذلك النطاق مع اختلاف بسيط ،هو ان مثـــل هذه القصص اكثر تطرفاً بخلق الوعي لحاضر الانسان – مع مراعاة نسبية ذلك الحـــاضر لعصر الانسان الذي تخرج فيه كل قصة من القصص – مما جعـــل كاتب مثل تلك القصص يخلق اجواء اضافية لتسلية او لايلام شخصيته القصصية ، كما فعل مؤلف « الالياذة » عندما اعطى دوراً كبيراً للآلهة في ملحمته تلك ، وعندما جعل هذه الآلهـة اداة نصر للشخصية الانسانية مرة ، واداة خذلان لها مرة اخرى ، وكما فعـل مؤلف « الف ليلة وليلة » عندما جاء بكثير من قصص الخيال المتنوعة في سبيل تسلية بعض الشخصيات الاساسية في القصة .

اذن فكاتب مثل هـــذه القصص لا يكتفي بخلق وعي للحاضر الانساني النسبي ، وانما يضيف الى ذلك الحاضر تنوعاً وتلويناً كبيرين ، مما يجعل في وعي ذلك الحاضر شيئاً كبيراً من الطرافة والتنوع .

والقصص الحديث ، على اختـلاف مدارسه ، يقوم ادلة قوية على اعتبار الدافع الاساسي لكتـابة القصة ، هو رغبة القاص في خلق وعي قوي لحاضر الانسان ،اي لحاضره هو ، ومن ثم رغبته في تأكيد وجود الانسان الفعلي – عن طريق وجوده يحس ويـــأكل ويتحرك – والممكن – عن طريق فكرة تخليد الوجود الانساني بواسطة الاثر القصصي الذي يستعاض فيه عن الانسان الفعلي بشخصيته الممكنة مع كونها نسبية الى زمنها التي خرجت القصة فيه .

ويقوم كالدويل في « طريق التبغ » وشتاينبيك في « فئران ورجـــال » وفولكنر في « الصخب والعنف » وهمنغواي في « الشيـــخ والبحر » ، امثلة على القصاصين الواقعيين الذين لا يكتبون القصة الا عن شعور بالحـاجة او تحيز – كما يقول اهرنبورغ – الى الوعي القوي لحاضر الانسان .

اما خلال القصص الوجودي فلست تجد اوضح من نزعة الوعي القوي لحاضر الانسان ، واذا كنت تعرف ان تلك النزعة لا تعتبر غير دافع للقاص – من غير المدرسة الوجودية – في كتابة قصته ، فهي من خلال القصص الوجودي لا تقوم دافعاً فحسب وانما هي دعوة صريحة تجدها باكبر ما يكون الجلاء في أية قصة وجودية لأي كاتب وجودي . ولا عجب فان الالحـاح على وعي الحاضر الانساني هو الاساس الاول للفلسفة الوجودية كلها ، وهل تجد ركضاً وراء تأكيد وجود الانسان وتضخيم ذاتيته بل وتأليهها اكثر مما تجده في الفلسفة الوجودية والادب الوجودي ؟

انك لا تجد عند كامو في « الطـــاعون » ولا عند سارتر في « الايدي القـــذرة » ولا عند سيمون دي بوفوار في « الأفواه اللامجدية » اكثر مما تجد من النزعة الى وعي حاضر الانسان وعياً ايجابياً فعالاً .

البصرة — خيري الضامن

صدر اليوم

الجزء العاشر

من الترجمة الكاملة لكتاب

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم

فيكتور هيجو

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

اطلب من المكتبات ايضاً المجلدين الاول والثاني وهما يشتملان على الاجزاء السبعة الاولى من هذا السفر النفيس.

دار العلم للملايين